

السلطة والطرق الصوفية " الطريقتان التيجانية والدرقاوية "

حصام صورية¹

HASSAM Soraya

مؤسسة الانتماء كاملة جامعة وهران 1

souraya_31@hotmail.com

تاريخ النشر: 2023/12/31

تاريخ القبول: 2023/12/04

تاريخ الاستلام: 2023/11/28

ملخص: برزت الطرق الصوفية على شكل تجمعات دينية تعود جذورها إلى التصوف الإسلامي، تمثل دورها بداية في نشر تعاليم الدين بهدف إصلاح العباد وحثهم على الرجوع إلى الأصل والابتعاد عن كل المنوعات.

لم يتوقف عمل الطرق الصوفية عند حد تنمية الحس الديني؛ بل تطور إلى كيان أصبح محركا لسير الأوضاع السياسية والاقتصادية وحتى الثقافية، ذلك ما أدى إلى البحث حول الدور الذي لعبته الطرق الصوفية والتساؤل عن أسباب مواجهتها ومعارضتها للسلطات الحاكمة في العصر الحديث، في كل من إيالة الجزائر والمغرب الأقصى، فوقع الاختيار على طريقتين هامتين لعبت دور المصلح الاجتماعي من جهة ودور المعارض للسلطة الحاكمة، وهما الطريقتان: التيجانية التي نشأت في صحراء إيالة الجزائر، والطريقة الدرقاوية التي كان مهدها تطوان بالمغرب. تمكن زعماء الطريقتين من استمالة عدد كبير من الأنصار فانتشرت بسرعة فائقة داخليا وخارجيا. من جهتها السلطتين الجزائرية والمغربية بادرت إلى استمالة زعماء الطرق من جهة حتى لا يكونوا معارضين لها، ومن جهة أخرى نجدها تتخذ إجراءات صارمة من أجل وضع حد لنشاطها التوعوي لأفراد المجتمعين الجزائري والمغربي، ومن ذلك نتج لجوء زعماء الطرق الصوفية الناقمة على السلطة إلى البلد المجاور.

كلمات مفتاحية: الجزائر، المغرب، السلطة، التصوف، الطريقة، الدرقاوية، التيجانية.

Abstract

Sufi roads have emerged in the form of religious gatherings that are worthy of Islamic mysticism, their role being the beginning in spreading the teachings of religion with the aim of reforming the worshippers and urging them to return to origin and to move away from all prohibitions.

The functioning of the Sufi roads did not stop at the point of developing a religious sense; It has evolved into an entity that has become an engine of political, economic and even cultural conditions. This has led to research into the role played by the Sufi roads and to question the reasons for their confrontation and opposition with the governing authorities in modern times, both in Algeria and in Al-Aqsa Morocco. Tijaniyeh, which originated in the desert of the Iyala of Algeria, and the Tharqaqiyeh method that was cradled with Morocco. The two ways' leaders were able to enlist a large number of supporters and they spread at great speed internally and externally. On the one hand, the Algerian and Moroccan authorities have taken the initiative to take advantage of road leaders so that they may not oppose them. On the other hand, they are

¹ - بيانات المرسل: اسم ولقب المرسل: د. حصام صورية، جامعة وهران 1، البريد الإلكتروني: souraya_31@hotmail.com

taking vigorous measures to put an end to their awareness-raising activities among members of the Algerian and Moroccan communities

Keywords: Algeria, Morocco, Authority, Sufism, order, Al-Darqawiyyah, Al-Tijaniyah

مقدمة: لعبت الطرق الصوفية في كل من إيالة الجزائر والمغرب دورا كبيرا، إذ كانت محركا أساسيا في سير الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية، مثل تمتين العلاقات بين الشعبين الجزائري والمغربي، كما كان لها الدور الكبير في تنمية العلاقات الروحية بين سكان المغرب العربي من جهة وبين سكان إيالة الجزائر والمغرب من جهة أخرى، كما عملت الطرق الصوفية في تجسيد الوحدة الدينية والحضارية لمنطقة المغرب العربي على وجه الخصوص، فالاتحاد الروحي والديني قدس بين الجزائر والمغرب، وتمتد جذوره إلى ما قبل القرن الثامن عشر وما يثبت ذلك وجود أدلة على الاتحاد القائم روحيا بين سكان البلدين.

كما أن التاريخ يثبت إيجابية وجدية العلاقات والمساعدات بين الأتراك العثمانيون في الجزائر وزعماء الزوايا والطرق الصوفية، فقد وجد تفاعل حضاري بين الطرق الصوفية المغربية، وغرب إيالة الجزائر، الذي برز بقوة وبصورة واضحة، بالإضافة إلى أن القوة السياسية في إيالة الجزائر أو حتى المغرب لم تتمكن من وضع حدا للاستمرار الصوفي رغم الإجراءات التي كانت تتخذها اتجاه زعماء الطرق الصوفية. ومن أشهر الطرق التي أثرت بقوة كبيرة في أوساط المغرب الأقصى، وإيالة الجزائر، وقلبت كيان الدولتين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، الطريقة التيجانية التي كان مهدها صحراء الجزائر ثم انتشرت في فاس والمغرب عامة، والطريقة الدرقاوية التي لعبت دورا فعالا في قلب الأوضاع في المغرب ثم انتشرت بشكل فائق في المغرب وانتقلت إلى البلدان المجاورة ومنها إيالة الجزائر، وتمكن شيوخها، ومناصريها من إيصال صوتها إلى حد كبير، وتفرع عنها طرقا أخرى، واعتبرت الدرقاوية الطريقة الأصل. زادت قوة الطرق الصوفية بعد أن تحولت إلى كيانات سياسية مجاهدة لكل سلطة خرجت عن القيم والمبادئ الإسلامية، فظهورها كقوة مناهضة بتعاليمها وشعاراتها، ما هو إلا نتاجا لأوضاع غير مرضية ومزرية وصلت إليه الحركة الصوفية في كل من إيالة الجزائر والمغرب خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر.

1. نشأة التصوف وانتشاره في إيالة الجزائر: ظهرت الطرق الصوفية في الجزائر بداية بغير تطبيقية، ثم بدا يتحول من النظري إلى التطبيق الفعلي ابتداء من قرن السادس عشر، واتضح نشاطه العملي، وأصبح يسمى بالزوايا والطرق الصوفية، وقد وجدت الطرق الصوفية طريقها لأول مرة في بلاد القبائل ببجاية والمناطق المجاورة، واعتُبرت مدينة بجاية منارة إشعاع طريقي صوفي لعدة قرون، فلقد أنجبت المدينة رجالات التصوف الكبار، أمثال أبو زكريا الزواوي وأبو زكريا السطيفي، ويحيى العيدلي، والشيخ أبي مدين، هذا الأخير انتقل إلى تلمسان أين توفي 1197، ومن بجاية انتشر التصوف إلى ب المناطق الأخرى. يعتبر أبو مدين الحسن الأندلسي أحد أوائل ورموز التصوف في الجزائر، ثم انتشر التصوف في إيالة الجزائر بفضل المدرسة التي أسسها عبد الرحمان الثعالبي، ومحمد بن يوسف السنونسي، وأحمد زروق، وغيرهم من أوتاد التصوف، وبذلك أخذ التصوف يدخل من شرق وغرب الجزائر¹ ومن العوامل التي أدت إلى انتشار حركات التصوف بالجزائر هي:

¹ - طيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، ع 14، أكتوبر 2013، ص 181

أ. **عوامل فكرية:** ظهور زعماء التصوف الذين عملوا على نشر طرقهم، في كافة المغرب الإسلامي، تمكنوا بنشاطاتهم ومؤلفاتهم التأثير أبا عن جد، ومن أضر رجالات التصوف في الجزائر، أحمد بن يوسف الراشدي بعين مليانة، ومحمد أفغول وعبد الرحمان الثعالبي، ومحمد التواتي البجائي، وشعيب السنونسي والشيخ أبو مدين.¹

ب. **عوامل سياسية:** تمثلت أولا في سقوط آخر معقل للدولة الإسلامية بالاندلس مملكة غرناطة سنة 1492 التي تلتها هجرات كثيرة من صوفي الأندلس إلى الأراضي الجزائرية أين احتكوا برجال التصوف وتبادل الأفكار وأما ثانيا، هو سقوط الدولة الموحدية، والتي كانت تمثل أكبر قوة إسلامية في صد التحرشات الإسبانية.

ج. **عوامل اجتماعية:** انتشار ظاهري اللهو و البذخ في أوساط المجتمع الإسلامي، وتراجع القيم الدينية والأخلاقية وابتعاد الخاصة والعامة عن مبادئ الدين، ومن هذا المنطلق عملت الطرق الصوفية جاهدة إلى محاربة المنحرفين، ثم تطورت مهام التصوف من الحث على العبادة والتعليم إلى مهمة الإصلاح والجهاد.²

2. **موقف السلطة العثمانية الجزائرية من التصوف:** كان العهد العثماني فترة نمو وتطور الطرق الصوفية، مثل الشاذلية، القادرية والدرقاوية، والشيخانية والحنصالية والشيخية والطيبية، إذ كان للتصوف مكانته الشعبية قبل المهيمن العثماني إلى الجزائر. إذ عشية دخول العثمانيين، كان التصوف قد بسط سلطانه على جميع مناحي حياة المجتمع الجزائري، فقد تميز العهد العثماني في الجزائر بانتشار الطرق الصوفية، وسيطرتها والقدرة على تغيير مسار الأوضاع السياسية والاجتماعية، وحتى الروحية بطريقة لم تحدث من قبل، رغم أنها كان منتشرة قبل وبعد هذه الفترة.³

استفاد العثمانيون من معاداة الملوك للطرق الصوفية، قبل مجيئهم للجزائر فقاموا باستمالتهم، حتى لا يكونوا عصاة ضدهم، مثل ما فعلوا في القرن الثامن عشر- فتذكر الكتابات أن "عروج زار الملياني واتفق معه على عدة أمور"⁴. حاول الحكام الأتراك اكتساب رضا المرابطين، وما يفسر ذلك أن الدين كان هو المبرر الأول لظهور العثمانيين في الجزائر وحماية الدين الإسلامي فيها، فقد شجع الدايات والبايات، رجال التصوف، فدعموهم في بناء القباب والأضرحة، والمزارات والزوايا والرباطات، وانفقوا في سبيل ذلك أموالا سخية، ورتبوا لبعض الطرق أوقافا خاصة، كما أعفوا المقرين منهم من الضرائب، وأصبحت الطرق الصوفية تتمتع بجاه وحصانة فلمستجند بهم، لا يلحقه أدى مادام في حمى الشيخ.⁵

وتبين الدلائل التاريخية، أنّ الحكام في الجزائر أولوا اهتماما كبيرا للمحافظة على الإرث الصوفي، وذلك بتجديد أضرحة العلماء وترميم مزارات الأولياء الصالحين، ويقول ابن ميمون "السبب في ذلك أنهم يميلون إلى الدين ورجاله بالقلب والقالب، لاسيما مذهب التصوف،

¹ - طيب جاب الله، نفسه، ص 181

² - نفسه، ص 181

³ - عبد المنعم القاسمي الحسني، الطريقة الخلوتية الرحمانية الأصول والآثار منذ ظهورها إلى غاية الحرب العالمية الأولى، ط1، دار الدليل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 268.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500 - 1830)، الجزء 1، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 470.

⁵ - نفسه، ص 470

الذي أصبح راسخا في قلوب جل سلاطين الأتراك وولاتهم¹، ومن أشهر الأضرحة التي تم الاهتمام بها وترميمها من طرف دايات الجزائر، ضريح عبد الرحمان الثعالبي².

كما ظهر في العهد العثماني بإيالة الجزائر، الاهتمام بتراجم الأولياء الصالحين لأنهم كانوا يروا في جهل الأولياء يؤدي إلى الهلاك، وبذلك وجد التصوف المجال الخصب للنمو، والانتشار بين العامة والخاصة، ويتضح هذا الاهتمام بما جاء به ابن مريم عاملا بنصيحة الشيخ السنوسي لأبناء عصره، فيقول "ليكن اعتناؤك يا أخي، بمن تأخر من الصالحين، وخصوصا من أهل بلدك"، ويوحى من هذا الرأي اندفع تلاميذ السنوسي، يؤرخون للمرابطين والأولياء والصلحاء³.

لعبت الزوايا مند ظهورها دور ملجأ للفقراء، والمساكين، ومحطة لعابري السيل، كانت قبلة للمتخصصين، وكثيرا ما كان للصلحاء دورا إيجابيا في فض النزاعات، كما كانت بمثابة إشعاعا، حافظ على تقاليد المجتمع، وعاداته وأصالته، واعتمدت العامة على الطرق الصوفية للتخفيف، ومواجهة الصعوبات، والأزمات الاقتصادية، والاجتماعية، التي كانت تحلّ بها، من آونة إلى أخرى.

3. مواقف الطرق الصوفية من السلطة الجزائرية: اختلفت المواقف من موقف معارض إلى مؤيد إلى وسط.

من أصحاب الموقف المؤيد، كان الشيخ الملياني، من أقطاب الطريقة الشاذلية متعاوننا منذ مجيء العثمانيين إلى الجزائر، ولعلّ السبب يعود إلى احتمائه بهم، لأن السلطة الزيرية أرادت التتكيل به، وقد ظلّ أتباع الملياني ينهجون نفس طريقة في التعاون مع السلطة، وقد برز اهتمام السلطة بأحد أتباع الملياني، هو محمد بن شاعة، الذي عُظم في وقته، فعفي من الضرائب مثلا⁴.

أما الموقف الوسط، فمن أصحابه، الشيخ العبدلي وتلميذه محمد بن سليمان مؤلف كتاب "كعبة الطائفين"، كان الشيخ العبدلي يشفع عن السلطة للناقمين عليها⁵، كما كان لبعض المتصوفة مواقف الوساطة في حالة الصراع بين الأهالي والسلطة الحاكمة. بالنسبة للموقف المواجه أو المعارض، فقد ظهرت ثورات معادية للسلطة وتعددت أسبابها⁶، مثل معارضة التيجاني للسلطة، خاصة بعد بعد ارتفاع عبي الضرائب، ثم ثارت بعض القبائل، باسم الطريقة، لكن اتضح أنها كانت من تحريض خارجي، وكثيرا ما كان للسلطة المغربية دخلا في ذلك.

عُرف سكانها بممارسة الزراعة التقليدية، كما برعوا في تربية المواشي، أما عن مناخ المنطقة؛ فهو بارد شتاء وحار في الصيف⁷، كانت عين عين ماضي أكثر مدن الجنوب الجزائري عددا من العلماء والأشراف منذ القرن السابع عشر، وأشهر العائلات التي عرفت بالجاه والعلم والدين، عائلة أولاد الشيخ سيدي محمد، وتنسب هذه العائلة نفسها إلى الشريف المغربي الذي أسس عين ماضي قبل المجيء العثماني إلى الجزائر⁸.

¹ - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق، محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2 الجزائر، سنة 1981 ص350.

² - ولد الثعالبي سنة 1384 بواد يسر على بعد 86 كلم من الجنوب الشرقي للعاصمة. ينظر أيضا ترجمته، عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، 1975، ص280. ينظر: نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، مطبعة البحث، قسنطينة، 1965، ص28.

³ - ابن مريم، البستان، مصدر سابق، ص6.

⁴ - قيداري قويدر، الطرق الصوفية والسلطة العثمانية في الجزائر بين 1520-1830، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع 10، ديسمبر 2015، ص 115.

⁵ - نفسه، ص114.

⁶ - نفسه، ص114.

⁷ - بن لباد الغالي، الزوايا في الغرب الجزائري التجانية والعلوية والقادرية، دراسة أنثروبولوجية، شهادة دكتوراه إشراف سعيدي محمد، جامعة أبو بكر بلقايد، ج 2008-2009، ص34.

⁸ - Louis Rinn Marabouts et Khouans, étude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, librairie éditeur, Alger, 1884, p422.

أما أرنو Arnaud يقول حسب الأسطورة، "أن قصر عين ماضي وفي زمن بعيد جدا، أي قبل مجيء العثمانيين إلى الجزائر، دخل المنطقة المسمى سيدي محمد، هذا الرجل، الذي استطاع وبمبلغ ضئيل أن يشتري المنطقة، وشيّد عليها بعض البيوت البسيطة، وأصبح المكان، مهدا للنشاط الديني والصوفي، بمساعدة بعض أصحابه من المغرب، وهكذا أولى المنطقة أهمية روضية، يزورها كل متعشش لفلسفة الصوفية، كما أصبح شخصا عالميا صوفيا يتسابق إليه طلبة العلم للاستفادة منه" ¹.

سميت المنطقة بعين ماضي وهي كلمة مركبة؛ عين ويقصد بها منبع الماء، فالماء هو الحي للشرب والمقصود بعين، هنا هو مكان لإرواء الجهل فبمجيء الناس إلى المنطقة يتشعبون بالمعارف الدينية.

أما ماضي فلعلّه، يقصد به الزمن الماضي (فات)، لكن المقصود هنا الكلمة العامية (الدارجة) ماضي أي تعود للمعدن أو السكين الحاد، فكل التساؤلات التي كانت تطرح على متصوفة المنطقة، كان يتم الفصل فيها أي وضع حد للإجابة ².

كانت منطقة عين ماضي تعاني أو تجابه خطرين، الأول المتمثل، في خطر القبائل المجاورة التي كانت تستولي على قطعان رحلتها، وقد سبق وأن ذكرنا أن سكان المنطقة اعتمدوا على تربية المواشي بالدرجة الأولى، أما الخطر الثاني، هو الاحتلال أو التوسع المغربي في عهد الدولة العلوية، فقد تمت محاصرة المدينة في عهد المولى إسماعيل، وتم فرض الضرائب على القبائل القاطنة هناك، ورفع من قيمتها المولى يزيد، والتي سميت بضريبة الزمة خاصة بكل بيت، وضريبة الخدمة على زعماء القبائل ³.

4. ظهور الطريقة التيجانية في بداية القرن الثامن عشر: تنسب الطريقة التيجانية إلى مؤسسها وشيخها أحمد بن مختار التيجاني، المولود بقرية عين ماضي سنة 1737، تعلم في مسقط رأسه القرآن على يد والده مختار التيجاني، الذي عرف بمؤسس الزاوية التيجانية بمدينة عين ماضي، التي تبعد عن الأغواط بحوالي 75 كلم، المنطقة عموما منبسطة الأرض، محاطة بجبال، يحدها من الشمال مدينة أفلو، ومن الناحية الجنوبية الغربية الأغواط، ومن الشرق مدينة الجلفة. بعد وفاة والده أحمد بن مختار بوباء الطاعون، الذي أصاب المنطقة سنة 1753، درس خلفا لوالده في المدرسة المخصصة لذلك، لكن بعد ذلك اختار الرحلة، باحثا عن العلم وكان توجهه الأولي إلى المغرب بفاس سنة 1758، وأمضى وقته في مناقشة، ومجادلة أصحاب المعارف، كما تنوّر في بعض النظريات، التي كانت غامضة بالنسبة له، فتشبع بالعلوم الدينية رغم بقاءه في فاس لمدة قصيرة، ففي خضم هذه الفترة القصيرة تعلّم الكثير، وكأنّه تعمّد للسفر إلى فاس للحصول على إجابات أسئلة، لم يجد حلّها إلّا عند علماء وفقهاء فاس، ثم رجع إلى عين ماضي، ليستقر بمنطقة أولاد سيد الشيخ بالبيض، ظل يبحث في المصادر الصوفية لمدة خمس سنوات هناك، ثم رجع إلى عين ماضي ليشد الرحال من جديد إلى تلمسان سنة 1768، وبقي بها أيضا خمس سنوات، وأصبحت له مكانة عالية في المدينة فكانت مجالسه تكتظ بطلبة العلم، ومن تلمسان جاءته رغبة زيارة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأدى فريضة الحج سنة 1773، اغتنم التيجاني فرصة الحج وتعلّم وأجاب على العديد من علماء عرفهم هناك، وبهذا كان يقول "كل ما اكتسبته من معارف، لا يعود إلى رجل واحد فقط وإنما، إلى كلّ العلماء الدّين صادفتهم" ⁴، ويذكر البعض منهم، سيدي أحمد التواتي زعيم الناصرية، وسيدي محمد بن عبد الله وأحمد بن عبد الله الهندي صادفه بمكة، ثم عاد إلى فاس سنة 1777، وبعدها إلى تلمسان، ومن جديد يعود إلى الصحراء أين وجد جمع كبير من الناس ولقبوه بالشيخ، وهكذا بدأت البوادر الأولى للطريقة التيجانية بمنطقة بوسمغون، وهناك التقى بالعالم سيد الحاج علي الحارزمي الفاسي، وكان قد تأثر به

¹ - El Hadj Abd El Kader Mahieddine, Siège d'Ain Madi, in **R.A.** Vol, 08, Année 1864, Interprete Arnaud, p354.

² - El Hadj Abdelkader, Mahieddine, Op.cit, p354.

³ - صالح عباد، الجزائر خلال العهد التركي، 1514-1830، د ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2014، ص 175.

⁴ - L. Arnaud, Histoire de l'Ouali Ahmed Et Tedjani in **R.A.** Vol, 5, année 1861, p469.

كثيراً، لما كان لديه من معارف روحية ودينية، وعلى إثر ذلك رحل إلى فاس 1798 بالإضافة إلى الظروف، التي عرفها، وهو ينشط لنشر طريقته الجديدة¹.

أمضى التجاني حياته متجولاً في الصحراء، وتوات والسودان، وتونس وفي كل مكان يمرّ به يقيم زاوية ويجتهد المقدمين حسب طريقته، التي أصبحت قوة حقيقية في مدة قصيرة، ممّا جعل سلطة الأتراك العثمانيين تجعلها في الحسبان، وغدّت المناطق التي يقيم فيها أهداف باي الغرب² محمد الكبير، الذي قام بحملة إلى عين ماضي سنة 1784 وفرض عليه ضريبة سنوية تقدر بـ 188 ريال³، وحملة أخرى قادها الباي عثمان ابن محمد الكبير سنة 1787، ليفرض عليه نفس الضريبة بنفس القيمة المالية⁴.

عندما أُرهِقته الضرائب، التي كانت تُفرض عليه، بالإضافة إلى سياسة التطويق التي كانت تقوم بها السلطة الحاكمة، قرّر أحمد التجاني الرحيل إلى فاس، والاستقرار هناك نهائياً سنة 1798 ودخلها في 17 سبتمبر⁵.

لقي التجاني استقبالا حاراً في فاس، لما كان يرى الأفراد في الطريقة، وزعيمها من بركة وانتساب لآل النسب هذا من جهة، ومن جهة أخرى لقي التجاني الترحاب من طرف ملك المغرب المولى سليمان، الذي كان يرى فيها وسيلة ضد الدولة الجزائرية. فقد منح ملك المغرب للتجاني قصراً رائعاً يعرف باسم "قصر المريا"، أقام فيه هو وعائلته وحاشيته⁶، وبقي ينشر طريقته هناك، بالإضافة إلى استمرارها في صحراء الجزائر من طرف أتباعه.

لم يرجع التجاني إلى مسقط رأسه عين ماضي، إلا مرة واحدة سنة 1813، ثم عاد إلى فاس، أين أدركته المنية سنة 1814، تاركاً وراءه إرثاً صوفياً، جمع بين علماء وصلحاء إيالة الجزائر، وصلحاء وشيوخ المغرب، في الفترة الممتدة ما بين القرنين الثامن عشر وبداية التاسع عشر، واستمرت من بعده، تاركاً وراءه تعاليم التجانية، من خلال مخطوط "من كل ناش"، بمعنى أخذ وقطف من كل شيء مفيد، وهنا يقصد العلماء⁷ والفقهاء الذي لقيهم خلال رحلاته لطلب العلم.

5. الطرق الصوفية في المغرب: عرف المغرب زوايا كثيرة لعبت دوراً كبيراً في الجانب الديني الجهادي، أشهرها الزاوية الدلائية، التي أسسها الشيخ أبو بكر بن محمد بن سعيد الدلائي سنة 1566، في ناحية وادي أم الربيع من تادلة، تأسست بهدف نشر مبادئ الطريقة الشاذلية، تمثل دورها في البداية، في إطعام الفقراء، وعابري سبيل وتعليم العلوم الدينية، وقد شكّلت هذه الزوايا نفوذاً قوياً في المغرب، لكنّها، واجهت عدّة مشاكل في المنطقة الشمالية، نظراً لمجاهمتها للحركة العلوية في الجنوب، كما وجدت أيضاً الزوايا التجانية بالمغرب ومن فروعها، زاوية فاس أنشأها أحمد التجاني عندما هاجر من إيالة الجزائر إلى فاس سنة 1799، بعد المضايقات العثمانية التي تعرض لها، وتحصل على الترحاب من طرف السلطان سليمان كما منحه دار المرأة بحي القرويين لممارسة نشاطه⁸.

¹ - L.Arnaud, Op.cit, p470.

² - Louis Rinn, Op.cit, p420.

³ - Ibid, p420.

⁴ - Ibid, p420.

⁵ - صالح عباد، مرجع سابق، ص 176.

⁶ - عبد القادر مداح، التواصل الصوفي بين الطرق الصوفية في المغرب الأقصى وغرب الجزائر (1830-1518) الهبرية نموذجاً، أطروحة دكتوراه، إشراف محمد مكحلي، جامعة بلعباس، س.ج 2016-2017، ص 168. ينظر:

L.Arnaud, Histoire de l'ouali, Op.cit, p471.

⁷ - L.Arnaud, Op.cit, p421.

⁸ - بن حيدة يوسف، أثر الفكر الصوفي الأندلسي في تعاليم الطريقة الشاذلية، مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد 18، العدد 1، ديسمبر 2017، ص 79.

كانت الأوضاع، التي أعقبت وفاة المنصور، أتمًا سمحت للطرق الصوفية، أن تأخذ زمام الأمور، بعد أن كان زعماء الطرق الصوفية مهمشين، ومن الظروف، وفي مقدمتها حدوث تنافس بين أبناء المنصور، قاد البلاد إلى حرب أهلية، تمخض عن تقسيمها إلى قسمين شمالية عاصمتها فاس، وجنوبية مركزها مراكش، ففتح ازدواجية في السلطة السياسية للمغرب، نتج عنها إساءة الحكام للرعية.. فحاجت الفرصة لصلحاء الطرق الصوفية، لممارسة دورهم باستعمال ضغوطات، منها الضغط على الحكام، من أجل العدل بين الرعية، فضلاً عن قيادة حركات الجهاد ضد التحرشات الإسبانية والبرتغالية، التي تكالبت على البلاد، وتم احتلال العرائش سنة 1603 والمعمورة سنة 1610.

شجع زيدان، شيخ الطريقة العياشية المجاهد العياشي، على أن ينوب عنه في مقاومة الإسبان والبرتغال لتحرير العرائش والمعمورة، وهكذا تعود البلاد إلى نفس أوضاعها خلال قيام الدولة السعدية لإنهاء الدولة الوطاسية، التي هي الأخرى، لم تتمكن من صدّ التحرشات الصليبية على سواحل المغرب، فتظهر الطرق الصوفية على الساحة السياسية، لتتقاسم النفوذ في البلاد، وتبني عملية الجهاد وتحرير المغرب، بيد زعماء الطرق الدلائية والسملالية، والعياشية والشاذلية، بالإضافة إلى ظهور أسرة علوية، جديدة أطلق على مؤسسيها أشرف تافاللت.

بعد أن كان الصلحاء أو زعماء الطرق الصوفية، يكتفون في عهد الدول السابقة (المرينية الوطاسية)، بالتدخل أحياناً لحمل الدولة على الاهتمام بشؤون الدين والرعية، دون اللجوء إلى العصيان إلا في ظروف نادرة، ومن غير أن تكون لهم مطامع سياسية واضحة، لكن في عهد نهاية الدولة الوطاسية، بدأوا يميلون إلى قيادة حركة الجهاد، ويظهر أن هذه الرغبة لدى الصلحاء، قد قويت أيام السعديين، فقد تجدد أنصار الطريقة الجزولية، التي ساندت المنصور في تكوين دولته خاصة بعد النصر في معركة وادي المخازن، هذا النجاح الذي حققه المنصور قد ساعده أكثر لصالح دولته والشعب المغربي. وقد اتخذ السعديون من الانتماء إلى النسب الشريف، وسيلة لكسب مزيد من احترام وود الشعب وتقديسه للنسب الشريف والمعروف أن هذا الانتماء إحدى الدعائم الكبرى التي ارتكزت عليها الدولة حين قيامها، لكن سوء السيرة وسياسة الظلم والبطش التي سلكها أغلب أولاد المنصور من بعده، أفقد تلك الثقة، لدى المجتمع وكان السبب الرئيسي في تمرد شيوخ وصلحاء الزوايا من جديد، فعمدوا بمساعدة عدد من الزعماء الشعبيين، إلى تبني حركة الجهاد¹. ثم جاء الحكم العلوي، الذي قام بتطبيق سياسة خاصة، تمثلت في الصرامة في وضع قواعد محددة والالتزام بتطبيقها، وكانت هذه من مميزات النظام الإسماعيلي، حيث كان الإخلال بها يقود مقترفة إلى التهلكة، فقد أوضحت لنا بعض النصوص التقليدية الكثير من التفاصيل الدقيقة، عن العنف والقسوة، والصرامة البالغة، التي عامل بها المولى إسماعيل كل من خرج عن طاعته وتنفيذ أوامره، فقد رفع من شأن العنف في عهد المولى إسماعيل إذ أصبح وسيلة لترسيخ هبة الدولة المتمثلة في شخص إسماعيل.

ولا غرابة أن تربط تلك النصوص بين اللجوء إلى العنف، وبين الأمن والاستقرار الذي عما السنوات الوسطى من حكمه، وقد استدلل الكاتب حينما ذكر "حتى إن اليهودي أو المرأة كان بإمكانهما التوجه، حسب الناصري، من وجدة إلى واد النون، دون خوف لأن هذه السياسة كانت قد هددت كافة أهل الزيغ والأهواء"². فقد قام المولى إسماعيل بتجريد القبائل من الخيل والسلاح، وأصبح عماله وقادة فرق جيشه يسهرون على ضمان الأمن، ذلك ما سهل جمع المحاصيل الجبائية، كان المولى إسماعيل ينتهج سياسة ازدواجية جمعت، بين التهيب، والترغيب، ولاسيما في تعامله مع الزوايا، التي هي إحدى البطاقات الراجعة في قبضة يده لضمان التطويق على المجتمع كلية،

¹ - إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، ج 2، دار الرشد الحديثة ، الدار البيضاء ، 1978م ، ص356.

² - محمد القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث، الرباط 2011 ، ص419.

استمر المولى إسماعيل في سياسة المولى الرشيد الرامية إلى تدجين معظم الزوايا، وخاصة بعد انتفاضة أحمد الدلائي، غير أن سياسة المولى إسماعيل لم تستند دائما على العنف المباشر كما كانت عليه سياسة الرشيد.

قامت سياسة المولى إسماعيل على إستراتيجية معقدة، متداخلة المستويات فقد استعمل أحيانا أسلوب التفاوض أو التفاوض عند عدم القدرة، وإنزال العقاب لاحقا عند توفرها، وبين سلسلة من الطرق الأخرى تتضمن كل أنواع التهيب والترغيب أو الأمر بالتذكير والامتنحان، ولم يكن من الغريب أن ينتقل موقف المولى إسماعيل اتجاه الزوايا ورجالها من منزلة الرضا إلى موقف السخط، أو العكس وذلك يتمشى مع سياسة متطلبات الحياة المخزنية، وكأمثلة نذكر أنه كان يقبل النصيحة من العالم المتصوف الحسن اليوسي، لكنه أجبره على الرحيل والاعتزاب عدة مرات، كما منع أحمد بن ناصر الدرعي شيخ الزاوية الناصرية وكانت حديثة التأسيس، من التوجه إلى الحج لموسمين متتاليين، رغم أن هذه الزاوية حظيت بامتيازات لدى المولى إسماعيل، إذ كان يسمح لشيخها بإصدار الظهائر في حدود نفوذ الزاوية بشرط أن تختلف الظهائر عن سيطرتها السلطانية، وذلك بوضع الطابع في أعلى الصفحة أو يمينه بدلا من وسطه، وهكذا اتسمت السياسة الإسماعيلية اتجاه الزوايا الصوفية بالكثير من البراغمية¹.

كانت السياسة الإسماعيلية تسير اتجاه منحنيين الأول: السعي إلى القضاء على الزوايا التي يظهر منها بعض المعارضة مثل الدلائية والثاني: استخدام واستغلال الزوايا الحليفة لترسيخ نفوذ الدولة ولاسيما الناصرية في الجنوب والوزانية في الشمال، فهذه الأخيرة ظلت الحليف الدائم للدولة العلوية إلى غاية الحماية الفرنسية بالمغرب.

6. بداية بناء الزاوية الدرقاية: الطريقة الدرقاوية نسبة إلى "الشيخ الجمل"²، هو علي، بن عبد الرحمان، بن محمد، بن علي، بن إبراهيم، بن عمران بن عبد الغفار، بن السخن بن سليمان، من شرف بني عمران ينتمي إلى قبيلة حسان، لقب بالجمل، والأصل لأنه كان قوي البنية في صغره، وراوية، تقول أنه ذات يوم كان يسير ببعض طرقات فاس، فوجد بها ناقة، أو بعيرا صغيرا راقد وسط الطريق، فرفعه ووضعه جانبا، فرآه بعض الناس فلقبوه بالجمل، ويرى البعض لقب مثل الجمل، يعود لسعة علمه واجتهاده في العبادة³.

ويعد الشيخ الجمل ممهد الطريق لظهور الطريقة الدرقاوية، وبداية تأثره بلباس التصوف وهو الخرق الصوفية، وأسس زاوية خاصة به بفاس، كثر أتباعه ومريديه وبدأ يتردد عليه الكثير، للزيارة والاستفادة من علمه وسلوكه، ثم يظهر من بعده رجل تأثر بالجمل، وهو العربي الدرقاوي (ت 1747)، الذي تابع نشاط الجمل واعتبر وريث بركته، وهو الذي أعطى دفعة قوية للطريقة الشاذلية، الطريقة الأم للدرقاوية، نشأ هذا الأخير في أسرة عريقة، تُلَقَّب ببني زروال، وكثر فيها العلماء والأتقياء⁴.

انتشرت الطريقة الدرقاوية، على عهد العربي الدرقاوي، في جلّ المناطق المغربي، وامتد ذلك حتى إيالة الجزائر، والبلاد الإسلامية، وذلك لنشاط وحيوية أصحابه وأتباعه، وكان هدفه البحث واستقطاب علماء متقدمين في الفقه، والتصوف، لنشر طريقة ومنهم محمد بن معروف (ت 1803)، وبوعزة المهاجي التلمساني المتوفي في بداية القرن 519.

¹ - محمد القبلي، مرجع سابق، ص 420.

² - محمد البشير الفاسي، قبيلة بني زروال، مظاهر حياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، مطبوعات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1962، ص 40.

³ - نفسه، ص 40.

⁴ - محمد الخداري، دور الزوايا والطرق الصوفية في العلاقات بين المغرب وولاية الجزائر، حالة الزاوية الدرقاوية من 1786-1823، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، أكادال السنة الجامعية، 2004-2005، ص 47.

⁵ - نفسه، ص 62.

وكانت أهم شخصية، من إيالة الجزائر، والتي كان لها الفضل في انتشار الطريقة، خاصة في الغرب، هو محمد بن أحمد البوزيدي الغماري التلمساني (ت 1814)، الذي التحق بالزاوية وأوقف كل أمواله للزاوية، وأيضاً تشبث بمبدأ التجرد، وبقي وفيها له حتى وفاته، وكان مؤهلاً لخلافة شيخه على الطريقة، لكن أدركته المنية قبل شيخه، قام بنشر الطريقة الدرقاوية بثوب التجرد بتلمسان، بعدما أمره شيخه باللجوء إليها¹.

أيضاً من الأسباب التي ساعدت على انتشار الطريقة الدرقاوية في تلمسان هي أنه، تمت محاكمة زعماء الدرقاوية بتطوان سنة 1794، ما دفع معظم الدرقاوة، إلى الرحيل إلى تلمسان، خوفاً من رجال المخزن، وقد وجدوا الترحاب من طرف فقهاء ومتصوفة تلمسان آنذاك.

7. انتشار الثورة الدرقاوية في المغرب: اعتبرت العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر حلقة الترسيع الفعلية لحكم السلاطين العلويين على عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله (1757-1790)، وقد تميزت هذه الحقبة بظهور الطريقة الدرقاوية كأمر، يهم المظاهر الاجتماعية التي عرفها المجتمع المغربي عامة، والتصوف الطريقي خاصة، كما أن بروزها أحدث هزة قوية داخل المجتمع المغربي، وعلى أثرها تمّ تحديد الطريقة الدرقاوية، في شكل ثورة أو تغيير جذري على قيم المجتمع المغربي، واتضح ذلك جلياً في نشر تعاليمها بقوة والتعريف بشيوخها، ومريدها. حتى أن أحد الفقهاء التطوانيين محمد بن محمد الجنوي (ت 1799)؛ شبه حركة الطريقة الدرقاوية بالثورة الفرنسية، "...إن درقاوة قاموا في هذا القطر والنصارى الفرنسيس قاموا... في قطرهم..."²، ونظر لأهمية الطريقة الدرقاوية، داخل التصوف المغربي وكثرة شيوخها وأتباعها ووجد من وصفها أو نعتها بالمدرسة الفلسفية والدينية³، في حين اعتبرها البعض، أنها تشكل وتحقق أهداف وطموح المعارضين للمخزن، وأنها تحولت إلى كيان سياسي معارض، لكل سلطة لا تطبق تعاليم الدين الإسلامي⁴، والثابت أن ظهور الطريقة الدرقاوية، بأسسها وشعاراتها، جاء كإفراز للحالة المزرية التي آل إليه التصوف الطريقي في المغرب، وما جعلها مميزة أنها انتشرت بطريقة مذهلة في المغرب وانتشرت في البلدان المجاورة ومنها إيالة الجزائر⁵، واستمر شيوخها، وأتباعها في تطوير هذه الطريقة، وتفرعت إلى عدة طرق، واعتبرت الدرقاوية المصدر، كما مكانة بارزة في التاريخ الصوفي المغربي، واستطاعت أن تهيمن في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر. وخلال هذه الفترة أثر أتباع الطريقة، على الأحداث الداخلية بالمغرب والجزائر وطال ذلك بدوره على التأثير، على العلاقات بين البلدين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، وكان ذلك على حياة المؤسس العربي الدرقاوي (1747-1823).

8. انتشار الطريقة الدرقاوية في إيالة الجزائر: لا شك أنه على الصعيد التاريخي والمعرفي هناك ارتباط بين التصوف والتاريخ المغربي، فقد لعبت الطرق الصوفية أدواراً رئيسية في بناء تاريخ المغرب الإسلامي، ونشر شيوخها أفكارهم خارج نطاق حدود بلادهم. كما شكل التصوف عاملاً موحداً بين شعوب بلدان المغرب ونحصر بالذكر، إيالة الجزائر والمغرب، وذلك لوجود ثقافة مشتركة تسمح بالتواصل وأيضاً وحدة الانتماء.

¹ - نفسه، ص 62.

² - محمد داوود، تاريخ تطوان، مج 6، المطبعة المهدية، تطوان، 1966، ص 155.

³ - Louis Rinn, , op.cit, p231.

⁴ - Octave Dupont, X Capolani, les confréries religieuses musulmanes, Ed, Adolphe Jourdan, Alger, 1897, p512.

⁵ - محمد الخداري، مرجع سابق، ص 33.

ظلت مبادرات المغاربة ماضية في منحى انتشار التصوف، والتواصل الديني رغم دخول العثمانيين إلى إيالة الجزائر، وظهور مفهوم الحدود بين إيالة الجزائر ودولة الشرفاء بالمغرب، ورغم هذه الظروف، التي اعتبرت عائقا بين الدولتين، إلا أنّ الرّابط ظلّ قويا خاصة في ميدان التصوف¹.

بالإضافة إلى انتشار الطريقة الدرقاوية في شمال إيالة الجزائر، انتشرت أيضا في إقليم توات وقرارة بصحراء الجزائر، فالباحث يقول "انتشرت في جنوب المغرب بتوات وقورارة وتوزنين ومدغرة وبالصحراء حتى تمبوكتو" لا ندري إذا كان هذا رأيه أم اعتمد على ما كتبه دوبون وكوبولاني Dupont et capolani².

خاتمة:

. لعبت الطرق الصوفية في المجتمعين الجزائري والمغربي دورا كبيرا، في التأثير على الأوضاع العامة.
 . كان للتصوف أهمية كبرى في تمتين العلاقات بين سكان البلدين، وترسيخ الجانب الروحي بين سكان المغرب العربي عامة وبين سكان إيالة الجزائر والمغرب على وجه الخصوص.
 . ظهرت الطريقة التيجانية بصحراء الجزائر وبعد لجوء زعيمها إلى المغرب تمكن من نشر وتعليم شعائرها في فاس ومناطق أخرى في المغرب.
 . تحولت الطريقة الدرقاوية من تجمع ديني كان هدفه الإصلاح إلى كيان سياسي معارض للسلطة في المغرب.
 . ظهرت الطرق الصوفية كقوى مناهضة نتيجة الظروف المزرية التي أصبح يعيشها التصوف في كل من إيالة الجزائر والمغرب الأقصى.
 . تميزت الطرق الصوفية بأنها استطاعت أن تستميل عدد كبير من أفراد المجتمع بطريقة مذهلة وذلك حفز إلى سرعة انتشارها في البلدان المجاورة.

¹ - محمد الخداري، مرجع سابق، ص 122.

² - نفسه، ص 122. وينظر: Dupont et capolani, op.cit, p512